الخطاب الرّوائي العربي بين الارتداد التّراثي وحتمية الانسياق الحضاري

الطالبة: زهرة بوضروة

إشراف: الأستاذ الدكتور حفصة جعيط

جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر2

الملخص باللغة العربية

إن الخطاب الروائي شهد عدة تحولات منذ نشأته إلى غاية اليوم فانتقل من مرحلة الازدهار إلى مرحلة التقهقر وقد ساهمت في رقيه وتدنيه عدة عوامل، أما عن المعاصر منه فقد عايش فترة انفصام نوعية أدت به إلى الانشطار والتمايز فمنه من ارتد إلى الماضي محاولا محاكاة آثار السلف الخالدة مقصيا بذلك كل محاولة للانتساب إلى الحاضر، ومنه من تساوق مع العصر رغبة منه في مسايرته متخذا بذلك الوسيلة كذريعة خوفا من التراجع والتخلف

الملخص باللغة الانجليزية

The narrative has undergoneseveral transformations fromitsinception to the presentday, movingfromprosperity to retreat and contributing to the decline of manyfactors, As for the contemporary of himhelived a period of schizophreniathatledhim to fission and differentiationfromhim to the pasttrying to simulate the effects of eternaladvancessothateveryattempt to join the present, And fromitfrombeing in harmonywith the age in itsdesire to betaken by thatway as a pretext of fear of beingbackward

إن الواقع العربي بما يُثقله من توترات الظرف الراهن بلغت شَأو رِكابها في امتطاء مس جميع مستويات الحياة السياسية، الاقتصادية والثقافية... إلخ، جنى الأدب قطوفا من آثارها ارتدت عليه في بعض جوانبه إما ضررًا أو نفعًا ولأن الوليد الأدبي عصارة ذات بشرية تتفاعل مع ذاتها باطنيا، وتنسلخ عن إطارها لتتجاوب مع معطيات خارجية، فهي إما فاعلة أو مفعول بها فإن كانت الأولى فذلك من عزم الأمور وعلائم البشرى وإن كانت الثانية فرحم الله زمنًا وَلّى كانت فيه العصمة بيد الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، دولة قائدة لا منقادة، تضرب بحافرها الأرض فتصدع، وتنطح الجبال بعظمتها فتركع "إن الوطن العربي يمر بأزمة شاملة اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية، وإن المحاولات التي بذلها الفكر العربي المعاصر للتغلب عليها تفتقر إلى وضوح الرؤية، وهو ينيط هذا الفكر بمرجعيتين: التراثية والنهضوية، تتمثل الأولى بالتيار الأصولي، والثانية بالتيار التراثي، الأولى تنهل من الإسلام والثانية تقتبس من الحضارة الغربية المعاصرة، وهذان التياران يتصارعان منذ أوائل القرن الماضي ولا يزالان دون أن تكتب الغلبة لأحدهما على الآخر"[1]، فأين هو موقع "العربي" آنيا في الفعل الحضاري؟ هل قبر بموت أسلافه وبُتر نسله وقُطع ذكره؟ ، وما مدى تجلي ذلك الانفصام الذي يزاوله بين الانتماء الحضاري للتراث وبين إلزامية الانصياع لتيار الفكر التجاوزي بين طوايا

الخطاب الروائي العربي؟ وإلى أي حد يمكن تحقيق مستوى من التوفيقية التأليفيةفي نسج الذهنية العربية وانعكاساتها على سطح الممارسة العملية؟ وهل يقع هذا الافتراض في حقل الإمكان؟.

– أسئلة هذه وأخرى سنحاول الإجابة عنها فيما يأتي:

إنّ الخطاب الرّوائي العربي يعيش فترة من أحرج فتراته التاريخية التي يقع فيها في مجابهة عالم الرقمنة، عالم غريب عليه جديد يتقاطع وطبيعة الخطاب الأدبي في بؤرة ساخنة إما تتقلص فيه أوتاره فتضيق به وإما تتمدد فتُفتح له أبواب الإبداع وتُمطر سماؤه ذهبًا وفضة...فكيف للعقل الأدبي أن يستوعب هذه المتغيرات وهو المطالب بالمزاوجة بين قطبين يتراجع أحدهما إلى الوراء حنينا واعترافا جليلا ببدائع السلف ويخترق الآخر جدار زمن افتراضا في محاولة للانفلات من سطوته... وأين مكمن العلة في مسايرته لفرائض الآخر وعصره من غير الالتفاف إلى الموروثات، إذا اعتبرنا أننا نعيش عصر الآخر المختلف والمؤتلف في آن"هذا وقد اضطلع الأدب العربي والرواية على وجه الخصوص، بدور بارز في رصد الأحداث السياسية و الاجتماعية والاقتصادية ...إلخ، ومن هنا فإن الرواية العربية قامت بمهمة الضمير العربي في مواجهة والتحديات والأزمات التي عانتها الأمة العربية في طريق تحررها وتقدمها، فعبرت عن أفكار الأمة، ورصدت حركة الجماهير ونضالها عن طريق رسم شخصياتها وعلاقاتها ونوازعها، وتصويرها لمختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية، وقدمت رؤيتها وتنبؤاتها وأحداثها، وما أوحت به من تطلعات وأشواق وطموحات وطنية وقومية كما نجده في روايات نجيب محفوظ ومحمد مستجاب، ولا يعني هذا أن الرواية العربية أسيرة للماضي بعيدة عن الحاضر، ولكنها تستخرج من الماضي القريب الصفحات المجيدة ومشرقة وتومئ من خلالها إلى إمكانيات الأمة العربية على نحو ما نجده في مقامات المويلحي فعندما تركن الرواية العربية على صور المقاومة الوطنية وشخصياتها القوية المناضلة في الماضي، فإنها لا تنسحب من الحاضر، بل تقدم شهاداتها إليه وتؤكد في بما تضمره وتضمنه إمكانيات التقدم والتحرر في الحاضر والمستقبل استنادا إلى إيجابيات الماضي فلم ينته الاستعمار من عالمنا بعد ولكن صورته القديمة هي التي اختفت وحسب"[2]

إن امتحانا عسيرا كالذي فرض على أدبائنا العرب في وقت يشهد فيه الوطن العربي انفصاما ذاتيا يتجلى حتى من خلال سلوكيات الناس، مظاهرهم، أفكارهم وأفعالهم حيث النقيض بين الفكر والتطبيق، القول والفعل.

ولما كان الأديب كيان اجتماعي نشط، فطبيعي جدا أن يحمل بصمات هذا الواقع المتصارع ولا لوم عليه يذكر إلا كونه من الصفوة، وهو ما يلزمه عبء المسؤولية بأثقالها ويوليه زمام توجيه، توحيد وتهديف الأفكار والمشاعر.

"إن المقاومة العربية للاستعمار وما واجهته من كبت للحريات ومصادرة للصحف والكتابات الوطنية المباشرة تقدمت بالرواية العربية لتلعب دور البديل وأكسبتها شعبيتها وجماهيريتها ثم قادها أخيرا إلى أصالتها وعروبتها ودفع الروائيين العرب المحدثين إلى التحرر من الشكل الروائي الغربي والعودة إلى ينابيع الفن الروائي في تراثنا العربي وأدركوا مدى الهوة الفاصلة بين التراث القصصي العربي والرواية الحديثة وتبينوا غربتهم في الأشكال الغربية النابعة من ثقافة وحضارة غربيتين، ووجدوا في تراثنا العربي الأشكال والموضوعات والقيم والأساطير والحكايات والرموز العربية الأصيلة

التي يمكن إحياؤها وعصرنتها في روايتنا العربية الحديثة، فلم يعد الشكل الروائي الغربي مقدسا وأنموذجا ثابتا يصلح للاقتداء به في كل زمان ومكان بعد أن اكتمل الوعي القومي وتحررت الشخصية العربية والعقل العربي من الغزو الفكري الغربي، هكذا أدت تحديات المقاومة العربية للاستعمار بالرواية العربية إلى تأصيلها وتعريبها قوميا على صعيد الشكل بعد أن تعربت على مستوى الموضوع والمضمون"[3]

لا نبرح بعيدا في سياق شاهد يوثق مذهبنا نمس فيه أقوى محرك للأمة يقتطع مساحة كبيرة من فئاتها (فئة الشباب) لنلحظ ذلك التصدع يشق الجسد والروح نصفين: نصف يتجه إلى الماضي معتزا ومغترا فيتقوقع على ذاته مناهضا ومنقطعا عن الاتصال بعصره ونصف أبهرته بهرجة الدنيا وموميضها، فانصرف بالانترنت عن أدب الرحلات ولا نعيب عليه فعلته ولكن العيب كله في أن يُزْجى به ولا يُزجِي أن يُغْنَى ولا يُغنِي، أن يقول فلا يبدي من أمره غير الذي وكل به، ويأبى الفكر الراشد أن يقتاد بغير وعي منه بمواطن الخيبة والأمل فيما هو مقبل عليه، فهل استطاع الفكر العربي أن يألسن هذا الوعي وما هي تجلياته السطحية والفوق سطحية؟

"لا نروم هنا تشخيص هذه الوضعية المرضية التي وقف عليها الكثير من الدارسين العرب وأحاطوا بجوانبها المتعددة إن الكل يكمن في ضرورة تجاوز أنماط الفكر الحديث، القديم وابتداع أنماط فكر جديد يغير نظرتنا إلى المجتمع والعالم، ويمكننا من تغيير أنفسنا ومن بناء مجتمع حديث، الأمر الذي لم تستطع النهضة تحقيقه، إن عملية تجاوز نمط التفكير القديم تمد لا محالة بتغيير شكلي التعبير والمحتوى، وهذا ما تطلق عليه السيميائيات المحاثية بالوظيفة السيمائية التي تمثل الدلالات المفتوحة، ولكن المسألة هنا لا تتعلق البتة بمقاربة شكلانية لمعضلة فكرية، وإنما ينطلق التغيير من اللغة ذاتها لأنها تحمل رؤيا الفرد والجماعة للعالم"[4]

إن ظاهرة التناص بما أحدثته من ضجة تلاها عشق الكتاب الجنوني لتوظيفها كموضة نحاسية مطلية بماء الذهب، نعدها من أبرز ما نستكين به للتدليل على حد زعمنا، على نحو ما نجده في كتابات جمال الغيطاني في روايته الزيني بركات مثلا إن هذه الظاهرة وإن تعددت مسمياتها وأُختلف في أصول نسبتها التي نلحقها بالجذر العربي يقينا منا بالسبق العربي المحمود الفضل من قبل الغرب والناسب إلى نفسه ما لا يحق له متأخرا ولك أن ترجع إلى كتاب ابن قتيبة–الشعر والشعراء–كقطرة من بحر لتفيء بالبيّنة...وإن لم يُنَظر لها العرب نظاميا وجاء ذكرنا بين دفات الكتب والمجلدات متسللة، فإن ذلك لا يبخسهم حق التسيد والملكية التي تواطئوا عنها فسلبت منهم، وعليهم الآن أن يدافعوا عن أبوتهم لها بدل أن يباشروا في تنمية نسلها، كما كان حريا بهم أن يفعلوا، وهو الحال الذي آلت إليه القدس في أيامنا المخجلة.

"ذكرنا أن المفكر الإيطالي الكبير أنطونيو جرامشي يذهب إلى أن الهيمنة نظام يقوم على فرض أسلوب معين للحياة والفكر ووجود تصور للحقيقة يسود المجتمع ككل ويمحو كل مظاهر الوجود البشري من عادات وأخلاقيات ومبادئ دينية وسياسية"[5]

إن وقوع النص العربي بين فكي الزمن السابق العالق وانزلاقه نحو الآخر الحاضر واللاحق لَهُو تحدٍّ في حد ذاته تصنعه قدرة الأديب وعبقريته على التكيف مع الأثر وتكييفه بغرض التأثير، وهو ما تجلى من خلال الكتابات المعاصرة كالمجموعة القصصية لعبد القادر عميش قناديل الظلام، وإن الانتماء الحضاري شق من الكينونة الإنسانية، بترها يورث شخصية عرجاء عديمة المورد تائهة المقصد، لا مركب لها ضمن قاطرة التاريخ سلفا وخلفا ولأن اللحظة الآنية توحدها قرائنها الزمنية فلا مطمع لمن تعرى عن لباس ماضيه في الصمود، ثم إن الإحالة على المرجعية الذاتية لا يعني الانغلاق على المنقطع من الزمن حتى تؤول الأرواح أصناما ليس لها من الحركية والإبداع نصيب"إن الرغبة في استشراف المستقبل هي إحدى الخصائص المميزة التي ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات، وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بقدرته على الوعي بالزمن، وإدراك أبعاده الثلاثة الأساسية الماضي والحاضر والمستقبل، كما تحتفظ الذاكرة البشرية بأحداث الماضي وينشغل العقل والذهن بوقائع الحاضر ومشكلاته الراهنة تتطلع المشاعر والأحاسيس والوجدانات إلى استشعار إلى أين تتأدى الحياة بالإنسان؟"[6]

إننا إذ ندعو إلى تنشق عبق التاريخ والاستزادة من صنائعه لا نتوانى في اللحظة ذاتها عن الدعوة إلى توسل إمكانات العصر المتاحة انصياعا لمطالبه التي لا يجب أن تتعارض مع نرجسية الجنيات الشخصانية ولسنا في هذا بمدعين، ويعزينا أن نشهد للحركة الأدبية المعاصرة رغبة في ارتقاء سلم العصر بركوب تيارات الفكر الحديثة والتشرب من مناهلها في مغامرات تجريبية لا تضيرها المواظبة فإن أصابت ظفرت بالأجرين وإن أساءت فلا تثريب عليها، فلها أجر المحاولة ،"فعل التحدي هو التجاوز الذي يواجه به الفعل العقبات والمشكلات التي تحول بينه وغاياته التي يريد الوصول إليها، وتحديات الإبداع العربي هي محاولاته تخطي شروط الضرورة إلى حيث تقع آفاق التقدم الواعدة، والتحديات نوعان من هذا المنظور إيجابية وسلبية، الأولى طموحة ولا تتوقف عن الطموح، فهي قفزات صاعدة على طريق التقدم المتزايد والصاعد الذي يغوي ما تحقق في مداه للانطلاق إلى ما لم يتحقق على نحو لا نهاية لإمكاناته الخلاقة التي لا تتوقف عن الإضافات الكمية والكيفية التي تدفع إلى ما لا آخر لها من إنجازات التقدم المتسارعة وتحديات الثانية علاجية، هي محاولات الذات القومية مفارقة وهادِ التخلف إلى أفق واعد من التقدم الذي يحررها من قيودها الموروثة أو المكتسبة أو المفروضة بفعل قوى خارجية وهي قيود تشد هذه الذات إلى الوراء أو توقف عقارب الزمن الذي تعيش فيه فلا تتحرك في حال من الجمود والثبات المتطاول."[7] وألمع ما يشدنا في هذا الجانب عدا سياسة عقد قران الأدب مع العلوم الإنسانية-في انصهار أضحى وجها مألوفا في تنميط مقاصده وتسديد أهدافه-هو اجتراءه على ولوج بحر العلوم التجريبية بما لها من مخالفات تصطدم وطبيعة العمل الأدبي على نحو ما نجده في كتابات أدونيس، فهل يمكن لهذه المخاطرة أن تلقي بالأدب خارج دائرته المائزة له كجنس معرفي متفرد؟ وهل لهذه القفزة من مبررات منطقية؟

"كانت الأجناس الأدبية في المنظومة اليونانية قائمة على اعتبار المثل حقائق مطلقة وراء المدركات الحسية التي في العالم المادي المتغير فعدت مثل هذه المثل مجردة في طبيعتها، وثابتة في جوهرها فكانت المواضيع ثابتة في نوعها

كثبات القيم في الثقافة الأسطورية فقد كانت الأساليب ثابتة أيضا، فكل ظاهرة في العالم اليوناني لها سببها المادي والشكلي الخاص بها، ولها بدايتها الخاصة وتطورها وهي ذات شكل مخصوص. أما الرواية فمتصلة بمعطيات تاريخية وفكرية متباينة وأهم ما اقترن بالتحول في الرؤية تجاوز الموروث المشترك إلى واقع قائم على رؤى جديدة قوامها الوعي بالهوية بين المجموعات المختلفة والإحساس بالاختلاف"[8]

إن هذه المبادرة حفلت بها دواوين الشعراء المعاصرين ولم تزل تزحف في سعيها حتى أتت على النثر العربي، فصار تشفير النص رقميا أو رمزيا لعبة بدعة تستهوي الممارسة الأدبية، ويا خوفنا من احتمال سقوط الأدب في مغبة اللاأدبية حين يصير النص الأدبي أحجية يشقى القارئ في تفكيك شفراتها، فيلهى بها عن تلذذ الطبخ الأدبي وتَفقِد الأكلة بذلك مقوماتها الفنية وديكورها الجمالي. فإلى أين يسير الأدب وفق هذا التوجه؟ وهل يمكن في هذه الحالة أن يعدم المزية؟

إن الإجابة عن السؤال تقودنا إلى السؤال عن مشروعية "الحرف –المفهوم-" باعتباره رمزا دلاليا بانفراده أو اتساقه تركيبيا في مقابل "الرقم أو الرمز" الذي يمكن أن يحمل نفس الصفة الدلالية خارج حيزه المعرفي، فهل هذا يمنحنا الحق في سلخ مشروعية توظيفه دلاليا في الحقل الأدبي كتفكير أولي اعتباطي.

إن تآلف النصوص بأي شكل من أشكال الاستعمال التناصي باعتبارها ظاهرة اتفاقية مؤسسة يعطيها الحق في استدعاء المخزونات الفكرية المترسبة في متحف الذاكرة فهل للرياضيات مثلا بوصفها علما تجريديا الحق في اختراق الحجاب الأدبي وما يمنعها من ذلك؟" أما الرواية فقد ارتبطت بالتعبير عن هوية خاصة استعملت فيها عناصر الكلام بما يؤدي وجهات نظر ذات تعدد واختلاف لتكون لكل جيل أو فئة لغة خاصة عبر كل مرحلة تاريخية من الحياة الإيديولوجية والتخاطبية. وفي هذا الإطار اعتبرت كريستيفاchristieva أن "أهم سمات اللغة في الرواية الانتقال من منطق الرمز إلى منطق العلامة الاعتباطي الذي في إطاره تعطى لكل علامة أكثر من معنى"[9]، هذا وقد زخرت الكتابات المعاصرة بهذا النوع من الاستعمالات على نحو ما نجده عند أحلام مستغانمي في روايتها نسيان. com.

إن خير الآراء أوسطها ونحن نميل إلى حكم المساواة في الفعيلة والفضيلة، فنلتمس للرياضيات مزية في تقريب النصوص إلى مقاصدها، سيما وأن قارئ اليوم خلاف قارئ الأمس الذي لا يجيد على قلته إلا النقش على الألواح الطينية، بما يملكه من ثروات فكرية يسرّتها له الثورة المعلوماتية وعليه فالرمز الرياضي لم يعد بالنسبة إليه معضلة تستوجب التوقف عندها بل يمكنها أن تخلق له متاهة ثقافية يشتهي الضياع فيها، هذا من جهة ومن جهة ثانية، فليس لنا الحق في وهم التعميم، فليس كل قارئ على هذه الدرجة من البراعة أو الفطنة الفكرية، والحق يقال سيما وأن وضعنا العربي لا يتيح مثل هذه الإمكانيات للعام والخاص، ضف إلى ذلك اتساع حقول الدراسات المتخصصة فكيف بالتعددية الثقافية مما يثير نكبة التشتت والعجز عن الإحاطة لدى القارئ الباحث.

وأتصور أن تحديات الإبداع الروائي العربي هي تحديات متعددة الأبعاد تتجسد بها خصوصية هذا الإبداع وملامحه النوعية وسواء في علاقته بالعالم المتقدم من حوله أو علاقته بالواقع التخلف الذي يعانيه في مجتمعاته العربية

التي ينتسب إليها، متخذا منها موقفا نقديا، فهو دائما ابداع في مواجهة أو رفض لما يراه متصلا بشروطه الضرورية "ولعل في ذلك ما يفسر درجة الوعي الذاتي المتزايد التي يتميز بها الإبداع الروائي العربي سواء في علاقته بنفسه أو علاقته بالعالم الذي يرصده كي يوازيه رمزيا أو يعيد خلقه على سبيل المواجهة أو الرفض أو التحدي أو المقاومة بالكتابة عبر أشكال السرد وأنواعه المختلفة"[10]

هذا من زاوية أما من زاوية أخرى فإننا وإن كنا ندعم هذه الطفرة التجديدية إلا أننا لا نخفي توترنا من احتمال اجتياحها للأدب حتى تفسد عليه خلقته، فهو مهما يكن يظل يحتفظ في موروثاته بعنصر الجمالية الأدبية التي تتعارض والنموذج التجريدي، فكيف له في هذه الحالة أن يوازي بين الخطين ليتجنب التصادم؟ إذا احتسبنا في أمرنا الجانب النفسي للقارئ الذي يسعى في بعض أحايينه المرهقة إلى الاستئناس بالأدب بحثا عن الهدوء والمتعة فرارا من تعقيدات الحياة ومسائلها المتشابكة التي لا يرضى أن يرحل عنها ليحط رحاله فيها.إن الإجابة عن هذا السؤال هو التحدي بعينه، وإن الرضا بأحد الطرفين أو الانحياز له هو اعتداء صارخ على حرمة الأدب وإن اتخاذ موقف وسطي هو حد زعمنا ذلك لأن تودد الأدب للعلوم التجريبية ينفي عنه تهمة الرجعية، في حين أن اعتناقه الكلي لها إخراج له عن الاصطلاح والوظيفة، يقابل ذلك انكفاؤه على ذاته واكتفاؤه بها مما يكبح تطوره ويجمد مواهبه وقدراته الإبداعية التي يمكنها أن تبرهن عن مرونة مادته وطواعيتها للاعتدال في القالب المراد تشكيلها فيه، وكعود على بدء نزعم أن الانتساب إلى الماضي وتبجيله خطأ في حد ذاته لأن المقصود أصلا من وراء دراسة التاريخ هو العدول عن أخطائه وتفاديها، كما أن تركه في حقه إهمال، ولأن النظر إلى المستقبل بعين المقبل الصرف الفاقع لعين المدبر إغفال ولأن خطية الزمن لا تنقطع إلى أن يرث الله الأرض وما عليها فالصلة بين مواقعها شديدة الحساسية بحيث تبني كل لحظة زمانية منها تاليتها التي ركبت ظهر سابقتها...هي أشبه بالعلاقة النظمية الجرجانية في تراتبية القيمة هذه الأخيرة التي جاء بها "سوسيرsaussure" في علاقاته الخطية المستقيمة والتي لا نراها على حد تفكيرنا إلا امتدادا للقراءات والدراسات العربية التي سبقته في الظهور بسنين خالية، جاء في الأخير ليتشبه بها ويأتي بما يقابلها وهي في الأساس مذكورة في المتون العربية القديمة وإن أغلقت عنها الأبصار وشذت عن إدراكها العقول لنأتي في آخر زماننا وننسب الفضل لمن لا فضل له ونسلخ الفضل عمن هو أهل له حين أتت العنكبوت على قاموس ذاكرتنا فكفنته بخيوطها وحكمت علينا أنفسنا بالإتباع وانصعنا لها بالضياع وانفلت منا عقد الوفاء واستكنا بالولاء تحت مظلة الآخر واستذللنا ذواتنا فأذلنا غيرنا.

"الانفصام في الشخصية العربية، عندما شوهت فلسفات الاختيار بين بعدي الحضارة: الروحي والمبادئ الشخصية العربية أصابتها بما جلبته عليها من تشاؤم حرك فيها مشاعر الكراهية والبغض وأكرهتها على عدم تقبل التفاوض مع الآخرين، وجعلت عدم التناسب بينها وبين الحياة شاسعا، وكانت كلما زادت القوة بين العربي وعالمه الخارجي زادت في عنفه الثوري نحو أمله في الإصلاح، وجوفت الهوة بين مظهره الحضاري وسلوكه المتخلف أزمة لا سبيل للخروج منها، وبدى أعراضها فيما كنا نحسبه تطورا طبيعيا يتصل بشكل من أشكال النشوء والارتقاء إنما هو

من أشكال الانفصام فيه الكثير من مظاهر التدني والتفسخ الذي به امتد الصراع إلى قلب الحياة العربية حتى خفقات انفعالها انفصاما فرض عليها نظما فيها من التعقيد."[11]

هذه هي قضيتنا التراجيدية الكوميدية، نمثل فيها كل أطراف المسرحية: نمثل لها، نخرجها، نصفق لها وقد نبكي عليها، هذا فيما يختص بالجانب الظاهراتي أما إذا ولجنا دفات السطور في محاولة لتفقد الشرخ الانفصامي الذي شجعته العولمة وتبرأت منه الحداثة، إذا انتصرنا لهذه الأخيرة على أنها صيغة توثيقية بين قطبي الزمن المتراجع والآخر المتقدم، نلاحظ مدى تجسد الوعي بالظرف الراهن على مستوى المضامين الروائية، ولعل أكثر ما يستدعي الذكر في هذا المقام على سبيل الاستشهاد روايات "جمال الغيطاني" (الزيني بركات، التجليات) وكتابات "محمد مستجاب"، حيث يتجانس الجمود الإبداعي الموجه لإعادة ترتيب الذهنية العربية والرقي بها، وهو ما نستشفه من خلال التواصل مع الماضي والاستعانة بجسر الآني لاختراق الآتي في مراوحة انزياحية تأبى السكون إلى السكون...ولا غرو في ذلك بحكم أن الوطن العربي منقاد ضيع صولجان الملك (ملك الحضارة، التاريخ، الثقافة...) فماذا لو انقلبت الموازين؟ هل سيظل هذا الانشطار قدرا محتوما بحكم الخضوع، أم أن قوة الحضارة والتملك الثقافي تعصمه من الانفصام الواقعي والذهني؟ وهل توجد احتمالية لتطبيق هذا التوقع؟

الأدب العربي في ظلّ تحديات العولمة:

تذكر "صبيرة ملوك" في إحدى مقالاتها الحرة والمنشورة بشبكة الانترنيت والمعنونة ب: الشعر العربي المعاصر بين جاذبية التراث وإغواء الآخر[12]، أننا نعيش عصرا يجعلنا دوما في مواجهة الآخر، لذا وانطلاقا من هذا الرأي وددنا أن نناقش هذه الفكرة والتي أصبحت تطرح في أيامنا هذه بحدة، ولم تعد مجرد مسألة شكلية متلعبة في الأذهان، بل صارت هاجسا ميدانيا تُرى أشكاله وانعكاساته وتعايش على أرض الواقع، ولذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأمر يتعلق بصراع احتدم بشدة مع مطلع القرن العشرين بانفجار الثورة المعلوماتية التي انجرت عن تطور وسائل الإعلام والاتصال ويغنينا عن تفصيل هذه النقطة شبكة المعلومات العالمية "الانترنيت" التي سرعت من وتيرة تشابك العلاقات الإنسانية والمعرفية لدرجة يصعب تخيلها وتخيل نتائجها الحتمية والتي يمكن أنن تكون كارثية في حالة حدوث أي خلل في منظومة العلاقات الإنسانية والمؤسساتية.

وبالنسبة لعالمنا العربي، فقد وصلت هذه التقنيات والتكنولوجيات المتطورة إلى وطننا العربي متأخرة، وقد تقاطعت مع خطوط حمراء وتعارضت مع وضعيات ثابتة هي مناطق محظورة بالنسبة لمجتمع ساكن لم يألف التغيير ولا يتأقلم بالسرعة التي تجب مع التحولات الجديدة لهذا العالم الذي اختزلته العولمة في قرية كونية "كما أن إنسان هذا القرن سوف يكون مضطرا للوقوف في وجه العولمة التي تسعى لطمس هويته وخصوصيته الفكرية والحضارية، بالإضافة إلى سعيها لأن تجعل منه عبدا على المستوى الاقتصادي"[13] حيث "تحولت الشركات المتعددة القومية إلى شركات عابرة للقوميات وأصبحت اللاعب الرئيس في اقتصاد العالم"[14].

ولأننا نود أن نعود بالحديث إلى حيث لا نخرج عن المراد والمقصد من وراء هذه الإثارة الجدلية يعيننا في توسيع هذا المقال أن نعرض إلى مواقف متباينة ترتكز في تقسيماتها على ثلاثية الزمن الماضي-الحاضر-المستقبل-بغية تحديد موقعنا ضمن ثنائية الأنا والآخر التي تفرض نفسها بقوة السلطة وحجة الغلبة للأقوى، ونجمل هذه المواقف في النقاط التالية:

- موقف يتجه نحو التراث إحياء وتبجيلا وهو منهج سلفي منغلق ومعاد للانفتاح وغالبا ما تتبناه الطوائف العربية التي تحاول الصمود في وجه الزمن والحفاظ على هويتها، والحقيقة أننا نفضل لفظ "الرجعية" العربية على لفظة "السلفية" ذلك لأن هذه الأخيرة يراد بها السير على منوال السلف، ومما يدعم رؤيتي هذه أن ابن تيمية رحمة الله قال أنه ثبت عن رسول الله (ص) أنه قال:"...فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجد وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة..." وعلى هذا الأساس ينبني الموقف الثاني من التراث وهو موقف وسطي معتدل مطابق لموقف المفكر المصري "حسن حنفي" والذي يرتكز في بناءه على منطق "ديكارتي" لامادي ويهدف فيه إلى تحرير التراث انطلاقا من "...قراءة إسلامية هدفها طرح رؤية جديدة للتراث لمواجهة تحديات العصر وطريقته في الفهم والتفسير ومنهجه في البحث والتحقيق ينهض على أن العقل وحده هو المرجع في الحكم على التراث الذي تؤول إليه مهمة تأسيس ثقافة جديدة...ينقي منها ما يلزم للرد على الواقع العربي المتخلف..."[15]، فهو يحاول من هذا المنطق التصالح مع القديم وخلق تناغم وإيجاد روابط بينه وبين الجديد.

- أما ثالث هذه المواقف فيلح على الطرف الثاني من المعادلة ويناهض الموروثات المقدسة ويرى بأنها أصنام معبودة ينبغي أن يفعل بها ما فعل النبي إبراهيم عليه السلام بآلهة قومه، ويحاول جاهدا أن يوجد البديل، ومن أنصار هذا الموقف إن لم نقل من أوائل من جاهر به "أدونيس" إذ يصرح قائلا: "أن لا قدسية للتراث: ليس كاملا، ولا مقياسا مطلقا ولا حاكما، وغير ملزم"[16].

ولأن المسألة لم تعد قيد الحروف بل خرجت إلى نطاق أوسع من ذلك بحيث اكتسحت جل مظاهر الحياة ارتأينا أن نجول في هذا الموضوع بإبداء بعض التدخلات التي تمس بعض الجوانب الأدبية التي شهدت تغيرات فرضها عصر العولمة ووجد فيها الأدب نفسه مجبرا على اتخاذ بعض الخطوات لتجديد لباسه ومواكبة الموضة الأدبية الجديدة وينجر عن هذه الموجة الأسئلة التالية: كيف تجلى هذا التحول؟ وما هي أدواته؟ وهل هناك قيود تمنع زحف العولمة على الأدب؟ لهذا الزحف أضرار أم منافع؟ وإن كان لديه أضرار فكيف يمكن التصدي لهذا الغزو الثقافي؟ وهل يصح هذا التعبير "تعبير الغزو الثقافي"؟

هذه بعض الأسئلة أما المتبقية منها فحدث ولا حرج، وهي ولا شك تحوم في عقول الكثيرين ممن يستثيرهم هذا الموضوع ويحفزهم على البحث والتنقيب طمعا في إيجاد أجوبة عملية لها، والحقيقة أن أسئلة كهذه تفتح بوابات عدة على موضوعات متشابكة ومتداخلة ومعقدة في الآن ذاته، لأن الأدب بطبيعته منفتح على التعددية الثقافية ولا

نقصد بهذه الأخيرة ثنائية الأنا والآخر أو بمعنى أدق صراع الشرق والغرب، ففي زماننا لا يمكن أن نتحدث عن هذه العلاقة على أنها عدائية بحكم أننا نعيش عصر الانفتاح اللامحدود والانصهار البشري وفقا لما ارتضته قوانين العولمة.

ثم إن معالجة موضوع بهذه الحدة تجعلنا في مواجهة حقيقية مع مسألة الهوية والانتماء الحضاري، ونحن لا نريد الخوض في هذه المسألة المترامية الأطراف ف"لا وجود لذات قائمة بذاتها بمعزل عن الغير أو الآخر، فالذات هي منظومة علاقات ولكنها منظومة منفتحة لا منغلقة..."[17]، وعليه يصبح المراد بتعددية الثقافة انفتاح النص الأدبي على نصوص غير أدبية وأدبية من جنس مختلف أو مؤتلف...إلخ، تسمى هذه الظاهرة الأدبية في الدراسات النقدية الحديثة بالتناص أو التفاعلات النصية، وتلقى هذه الأخيرة رواجا كبيرا واستخداما واسع النطاق على مستوى النصوص الأدبية، وقد شجع على هذه الممارسة الأدبية ذلك الفضاء الرحب الذي أتاحته التداخلات الثقافية الحاصلة على أكثر من مستوى من مستويات الحياة، فهل تعمل مثل هذه الظواهر الأدبية وغيرها من المعالجات الموضوعية التي صارت تطرح بنفس النمطية الغربية بحكم أن الواقعين العربي والغربي أصبحا متطابقين ومتقاربين إلى حد كبير على المستويين الظاهر الباطن على تفريغ الأدب العربي من محتواه وتنقص من جوهره وقيمته ومعدنه الأصيل؟ أم تسهم ظواهر كهذه في إثراء الأدب العربي؟

معلوم أن الأدب كفرع معرفي-متواجد منذ الكينونة الإنسانية وإن لم يوجد كتنظير وموروث مادي وهو ما تشير إليه القصص الشعبية والأساطير المتوارثة شفاهة عن الأجداد بالتواتر-مورس منذ الأزل دالا على كينونات شوفينية ترتكز على الأنا كذات فردية وجماعية، وهذا ما تثبته سطوة النزعة العصبية على أيام الجاهلية المتدثرة بشعار:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[18]

فارتباط الأدب ببيئته أمر لا جدال فيه، فهو لسان حال القوم والناطق باسم عشيرته الأقربين، ولو أن مثل هذه التعابير والأفكار أصبحت من المنظور المعاصر ميتة في الزمن الأدبي وصرنا لا نعثر عليها إلا في الكتب والمؤلفات الحديثة دون المعاصرة التي أصبحت تنظر للأدب وفقا للإجراءات الشكلية التي فرضتها النصوص الأجنبية والدراسات الحداثية الوافدة من الغرب بفعل عمليات الترجمة، حتى صارت مثل هذه الأساليب التعبيرية مبتذلة مهملة الاستعمال قد أكل عليها الدهر وشرب، وتوجه الخاصة من أهل اللغة والأدب وأعلامها إلى ابتداع خط جديد في الكتابة الأدبية مرتكزين في ذلك على أسس وتقنيات"...تجئ من الأصل، لا من التالي للأصل، لا تجئ مما تراكم بل مما لم يتراكم بعد، لا تصدر، بتعبير آخر، عن منظومة من الأفكار والرموز والصيغ الموجودة سابقا، بل تصدر عن مبدع يبدو لفرادة إبداعه، كأنه يؤسسها للمرة الأولى، هكذا لا تستمد لغة المبدع رموزها وأبعادها من لغة سابقة، وإنما تنشأ رموزها وأبعادها معها وتنمو معها ولا نفهمها بالعودة إلى مصادر سابقة (الأساطير، الثوارة، الشعر العربي، أو الغربي...إلخ)، وإنما نفهمها بالغوص فيها هي ذاتها"[19]

ومن بين الميكانيزمات اللغوية الجديدة: التلاعب اللغوي بالملفوظات وأشكال التراكيب المزجية منها، وكذا الترميز اللغوي، التعالقات النصية، التغريب اللغوي،...ويمكنك العودة إلى بعض الروايات والمجموعات القصصية

الصادرة مؤخرا لتفيء بالبينة ولك أن تقرأ مثلا لـ "محمد مستجاب" و"فاضل السباعي"وبعض الأسماء الجديدة التي أطلت على الساحة الأدبية بثوب لغوي جديد وسنسوق لك في هذا المقام شاهد وهو مقطع من مقال لمحمد مستجاب (القاص المصري وأبو القص الساخر المعاصر) يقول فيه: "والنفور–في المعجم الوسيط–هو الخروج أو هجر الوطن والضرب في الأرض ولذا فإن النفور عندما يصيب الجسد الإنساني دون النفس الإنسانية يعني ذاك الورم الذي يؤذي اللحم والأعصاب، متوازيا مع نفور الزوجة من زوجها حينما تعرض عنه وتصده فإذا نفرت الجماعة من الناس ضد العدو ذي الخطر عليهم، يصبح النفور حالة أخرى يقوم بالتنبيه إليها–في الجيوش الحديثة–النفير حينما ينطلق مؤذنا بالاستعداد تمهيدا للدفاع أو الهجوم، ومن الغريب أن هذا التغير لم يرد في المعجم الوسيط: أحدث وأشهر معاجم مجمع اللغة العربية، تماما كما لم يرد النفري المشار إليه في الموسوعات، في حين وردت النافورة التي تنبثق مياهها في ميادين المدن–خاصة العواصم–متألقة في أضواء كهرباء ناعمة وساحرة[20] يعبث "محمد مستجاب" بمفردتين "النفر والنفور" بطريقته المعتادة وروحه الخفيفة الظل والمرحة في إطار محدد يقصد إليه قصدا وهو توسيع المساحات الاستعمالية لكلمات أصيلة محنطة في القواميس والمعاجم العربية وغير متداولة، هذه المشتقات تعكس هذا الهاجس الأدبي والحضاري الذي نرمي إلى توضيحه من خلال هذا المقال، فقد حاول "مستجاب" أن يجمع بين أجمل ما في التراث العربي وبين ما حصله من عمق التجربة الإنسانية والثقافة الشعبية وتطلعات الممارسة الأدبية العربية وهو ما يتضح من خلال كتاباته القصصية والروائية ومقالاته.

ومن خلاله ما تم عرضه نخرج بنتائج أهمها:

- أن الإبداع العربي لم يعد متعلقا بماضي أو حاضر الأمة أو لغتها وآدابها بل صار يتعلق بالمبدع نفسه وقدرته على ابتداع خط جديد في الكتابة العربية صادرة عن منظومة تبدو لفرادتها كأنها تُؤَسَس للمرة الأولى.
- لا تقتضي معالجة موضوع في هذا النطاق الكثير من العصبية التي تضعنا في مواجهة مع أزمة الهوية والذات العربية، فيمكن النظر إلى القضية من وجهة نظر معتدلة حيث يسمح للنص العربي بالتحرك ضمن مجال أكثر اتساعا تتيحه نتائج العولمة وهو ما يضمن للنص العربي أن يكون أكثر انفتاحا في طرح قضاياه المتعلقة بماضيه وحاضره، الآن والآخر.
- أما عن مواجهة النص العربي لعالم الرقمنة فنحن نتوقع إمكانية ترجمة وتكييف العمل الأدبي وفقا للمفاهيم الرياضية بحيث تتماشى مع طبيعة النص الأدبي.
- وعن القضية الجوهرية وهي وقوع النص الأدبي ضمن ثنائيات جذب بين الارتداد التراثي وحتمية الانسياق الحضاري فلقد ظهرت لحد الساعة جهود استطاعت أن توفق بين التيارين المتجاذبين، ونحن نرتقب أن تولى القضية اهتماما أكبر بحيث تعالج القضية من إحدى القطبين فحسب.

الهوامش:

[1]– علي ملحم: أزمة الفكر العربي المعاصر. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2000، ص23.

[2]– أحمد محمد عطية، الرواية السياسية–دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية.مكتبة مدبولي، القاهرة، دط، 1981، ص85.

[3]– عدنان علي محمد الشريم، الخطاب السردي في الرواية العربية، عالم الكتب الحديث. الأردن، ط1، 2015، ص238.

[4]– أحمد يوسف، علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف الرباط، ط1، 2013، ص142.

[5]– أحمد أبو زيد، مستقبليات، كتاب العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ط1، أفريل 2010، ص237.

[6]– المرجع نفسه، ص217.

[7]– تجارب في الإبداع العربي، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ط1، يوليو 2009، ص10.

[8]– مازوني فريدة، انفتاح الجنس الأدبي وتحولات الكتابة عند إبراهيم سعدي، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2013، ص40.

[9]– المرجع نفسه، ص41.

[10]– تجارب في الإبداع العربي، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ط1، 10 يوليو 2009، ص11.

[11]– محمد إبراهيم القيومي، رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة، عالم الكتب، القاهرة، د ط، د ت، ص45.

[12]– الموقع: التبيين مارس 2003.

[13]– أحمد حمد النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2004، ص155.

[14]– بول هيرست وجراهام طومبسون. ما العولمة؟. تر: فالح عبد الجبار، عالم المعرفة، الكويت، عدد 274–2001، ص24.

[15]– علي رحومة سجون: إشكالية التراث والحداثة في الفكر العربي المعاصر، توزيع منشأة المعارف، شركة الجلال للطباعة، الإسكندرية، 2007، ص125.

[16]– أدونيس: الثابت والمتحول، الجزء الثالث–صدمة الحداثة–دار العودة، بيروت، ص277.

[17]– علي حرب: الممنوع والممتنع–نقد الذات المفكرة–المركز الثقافي العربي، ط4–2005–ص107.

[18]– موقع الانترنيت: www.nabulsi.com، الندوة (22–27) النزعة القومية في الأدب العربي القديم، محمد راتب النابلسي 13–10–1982..

[19]– أدونيس: الثابت والمتحول. ج3. صدمة الحداثة. ص283.

[20]– محمد مستجاب: مقال: "بين النفر...والنفرور"مجلة العربي، العدد 553، ديسمبر 2004، ص122.